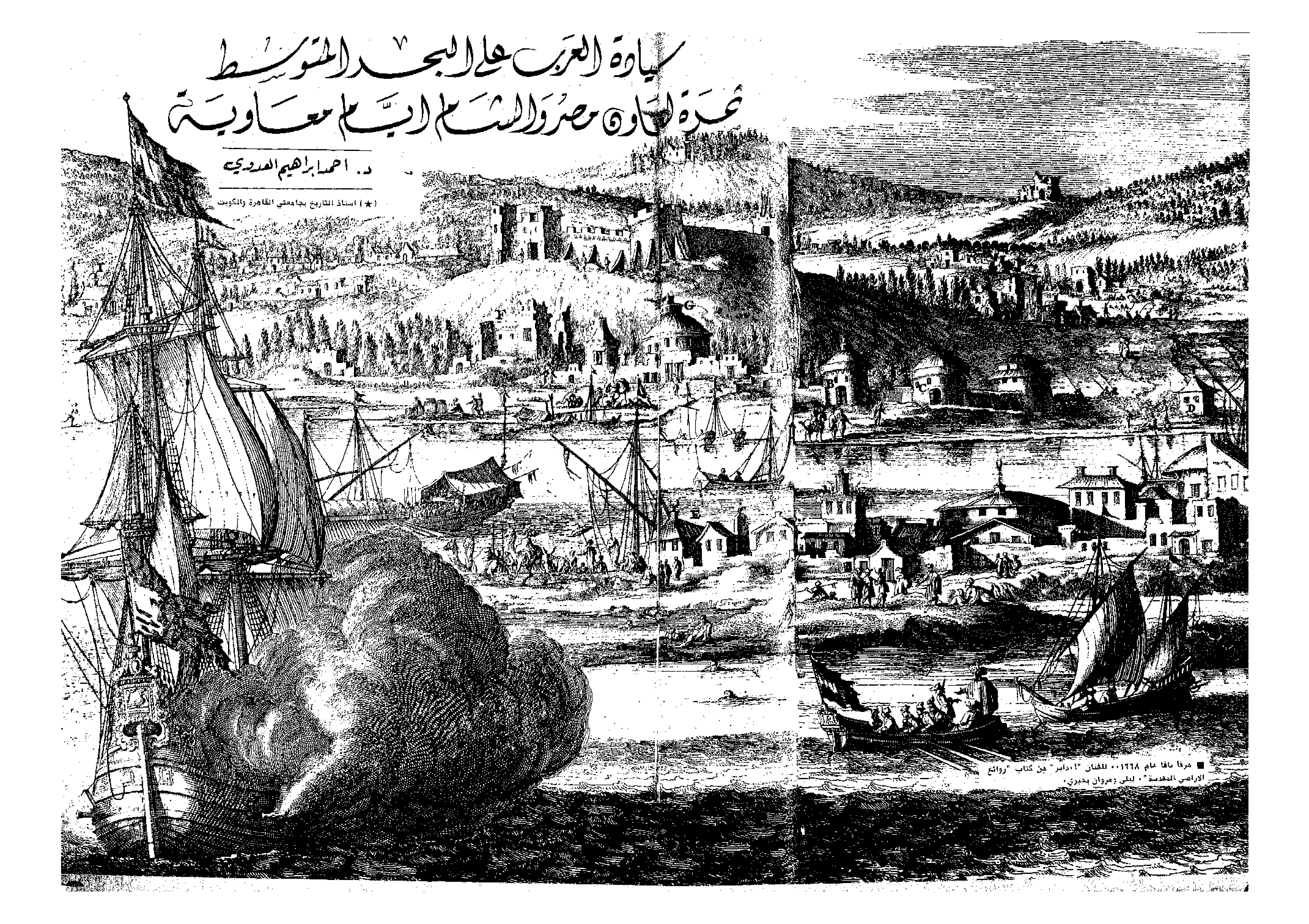
سيادة العرب على البحر المتوسط ثمرة لتعاون مصر والشام أيام معاوية

د. احمد ابراهيم العدوي

(★) استاذ التاريخ بجامعتي القاهرة والكويت



■ مرفأ يافا عام ١٦٦٨، للفنان "أ. دابر" من كتاب "روائع الاراضي المقدسة"، لبلي ومروان بحيري.

البحر المتوسط
خط الدفاع البحري

يعتبر القرن السابع الميلادي نقطة تحول كبرى في تاريخ العرب السياسي والحضاري، اذ خرجوا في ذلك القرن من موطنهم الاصلي في شبه جزيرة العرب حاملين راية الاسلام الى جيرانهم من الامم. وقد بهر العرب أنظار العالم اذ ذاك بحماستهم الشديدة في نشر الدين الجديد، وسرعتهم الخاطفة في الاستيلاء على أهم بقاع العالم القديم، الممتدة من نهر الفرات الى وادي النيل.

على أن الدهشة التي أثارتها موجة الفتوحات العربية في القرن السابع الميلادي لم تلبث أن تضاءلت أمام ما أظهره العرب من وعي بحري ناضج في تلك الفترة المبكرة من تاريخهم السياسي، وقدرتهم على ركوب سفن البحار بنفس المهارة التي قادوا بها سفن الصحراء عبر الكثبان والرمال ولم ينل العرب تلك المكانة في عالم البحار عن طريق الصدفة أو تقدير المقادير، وانما وصلوا الى مصاف الامم البحرية الكبرى التي عرفها البحر المتوسط عن طريق التجارب المضنية وتجنب الاخطاء التي وقع فيها من سبقهم من أصحاب السلطان على شواطىء ذلك البحر.

وكانت تتردد في آذان العرب غداة استيلائهم على الشام ومصر في النصف الاول من القرن السابع الميلادي المحنة القاسية التي نزلت بالفرس بسبب اهمالهم لشؤون الاسطول في البحر المتوسط، ذلك ان الفرس كانوا قد استولوا على الشام ومصر سنة ٦١٤م أي قبل الفتح العربي لهذين القطرين بنحو عشرين سنة تقريباً، وتمادت بهم الآمال الى الاستقرار على شواطىء البحر المتوسط (١).

ولكن غاب عن الفرس أن الروم أصحاب السيادة علي البحر المتوسط لن يغضوا الطرف عن أغنى أقاليمهم وهما الشام ومصر، وأنهم لا بد قائمون بحركة استرداد لمكانتهم في شرق البحر المتوسط، واستطاع الروم فعلا استعادة سيادتهم البحرية بفضل تقوية أسطولهم في البحر المتوسط، والاستفادة من أهمال الفرس لشؤون شواطىء الشام ومصر، وافتقارهم الى أسطول يحمي تلك الشواطىء كذلك.

وتجلت أهمية الأسطول لكل من يرغب في السيادة على البحر المتوسط وتدعيم أقدامه على شواطئه حين ظهر الامبراطور هرقل على مسرح دولة الروم، وأخذ يعبىء قواتها البحرية لطرد الفرس من الشام ومصر. اذ أعد الامبراطور هرقل حملة أقلتها سفن الروم من العاصمة "القسطنطينية"، وأبحرت مباشرة الى شواطىء الشام الشمالية. ثم نزلت قوات الروم في المنطقة الممتدة بين شمال الشام ومنطقة قليقية من آسيا الصغرى لتتجنب الاصطدام المباشر بقوات الفرس البرية، التي انتشرت طلائعها في آسيا الصغرى (٢).

وأتت سياسة هرقل البحرية ثمارها في انقاذ دولة الروم، واسترداد الشام ومصر في سهولة ويسر. اذ ظن الفرس أن نزول قوات الروم في شمال الشام مناورة حربية من هرقل لتطويق جيوشهم في آسيا الصغرى، ثم اندفاع تلك القوات مباشرة الى المدائن عاصمة فارس، والاستيلاء عليها في غيبة القوات الفارسية المبعثرة في بلاد شرق البحر المتوسط. ولذا سحب الفرس قواتهم على عجل من الشام ومصر، وعادوا الى بلادهم للدفاع عن عاصمتهم "المدائن". وسار هرقل في اثر القوات الفارسية مستعيداً سلطان بلاده على هذا الشطر الهام من البحر المتوسط بفضل حملة بحرية واحدة (٣).

ولكن قبل أن يسترد هرقل أنفاسه، وينعم بثمار انتصاره انطلق العرب سنة ٦٣٤م من شبه الجزيرة العربية حاملين راية الاسلام، واستولوا في سهولة وسرعة فائقتين على الشام ومصر. وبهذا الفتح العربي استهل البحر المتوسط صفحة جديدة من تاريخه الطويل. ذلك أن سيادة الروم البحرية وجدت في العرب منافساً خطيرا آذن بانتهاء اسمهم الذي لصق طويلا بالبحر المتوسط، حيث عرف أجيالا وقروناً عدة باسم "بحر الروم".

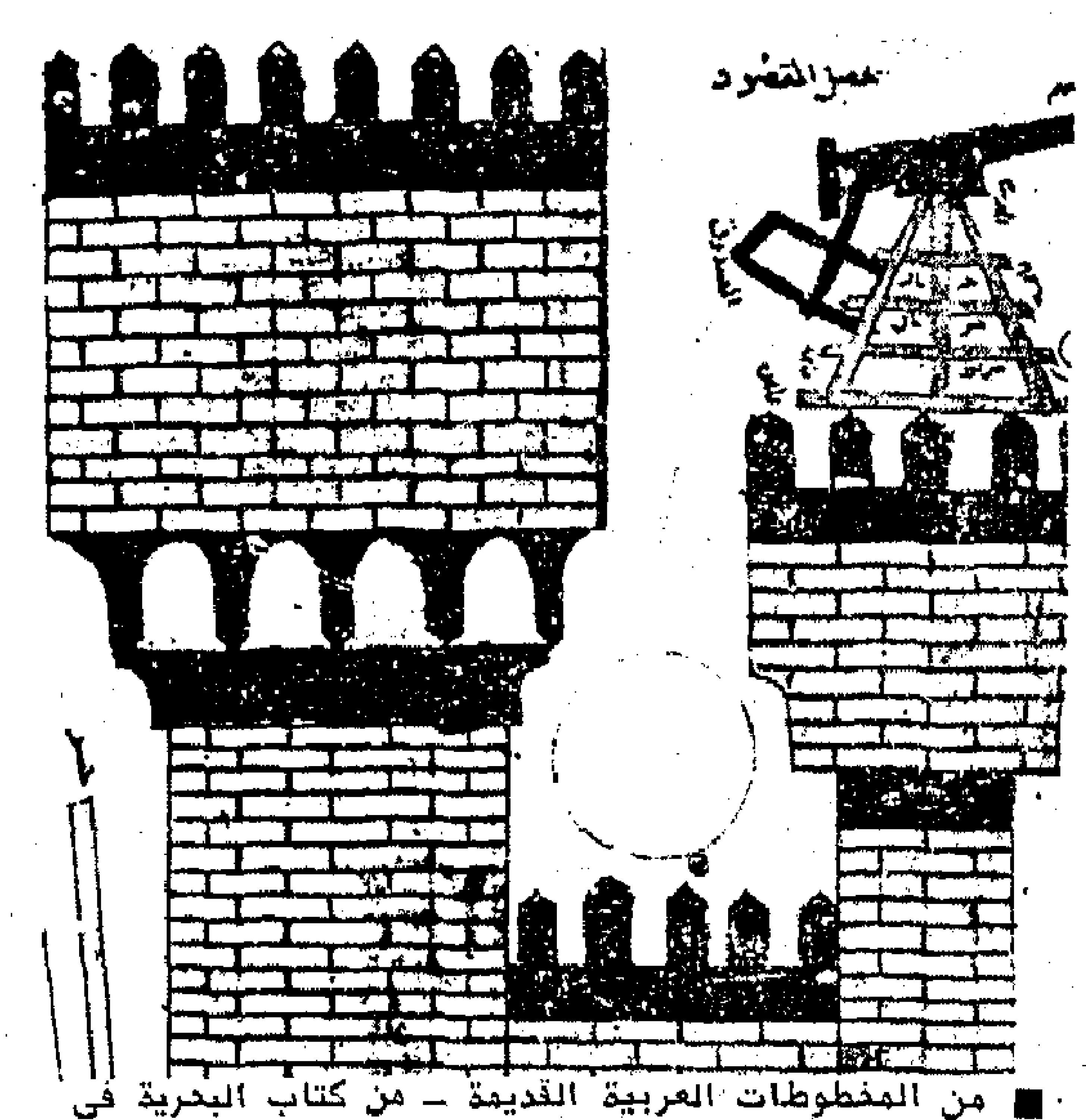
ويرجع الفضل في تجنب العرب للكارثة التي حاقت بالفرس الى سياستهم البحرية الواقعية، التي اتسمت بابتعادها عن الارتجال. ذلك أن العرب ما كادوا يسيطرون على شواطىء البحر المتوسط الممتدة من جبال طوروس شمالا الى حدود برقة غرباً حتى أحسوا عظم المسؤولية الملقاة على عاتقهم وضرورة تأمين تلك السواحل. فعمدوا أولا الى تحصين الثغور البحرية وكذلك الموانىء الهامة وغيرها من المدن الساحلية التي يمكن للعدو التسلل منها الى داخل البلاد.

ويمكن وصف تلك السياسة العربية بأنها سياسة بحرية دفاعية، تستهدف تأمين الفتوحات العربية في الشام ومصر. ذلك ان العرب لم يفكروا في ذلك الوقت المبكر من فتوحاتهم في ركوب البحر المتوسط، والاقدام على المغامرات البحرية التي لا يأمنون مغبتها. ولذا اكتفوا بوضع حاميات قوية في المدن الهامة مثل اللاذقية وطرابلس وصور وصيدا وعرقة وجبيل وبيروت على الشاطىء الشامي، وفي الاسكندرية وتنيس ودمياط والبرلس ورشيد على الشاطىء المصري، وفي ثغور بنطابلس أو المدائن الخمسة، وهي المعروفة اليوم باقليم برقة.

"وظل العرب أمناء على سياستهم البحرية الدفاعية، فكلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها ما تحتاجه من الجند، فان حدث في شيء منها حدث من قبل العدو سربوا اليها الامداد" (٤) وتجلت تلك السياسة البحرية وقدرتها على حماية الشام ومصر حين قام الروم بأشد غارة لهم على هذين الاقليمين سنة ٢٥هـ/٦٤٥م.

وكان الرأس المدبر لتلك الاغارة هو امبراطور الروم قنسطانز الثاني، الذي أراد أن يعيد بحملته البحرية قصة جده هرقل مع الفرس. اذ انتهز افتقار

العرب الى أسطول بحري، وعمد الى مفاجأتهم في الاسكندرية والاستيلاء عليها، وجعلها قاعدة لاخراج العرب من مصر. ثم ان قنسطانز توسع في خطته البحرية بارسال حملة أخرى تغير على شواطئ الشام في نفس الوقت الذي يهجم فيه أسطوله على الاسكندرية، حتى يحول الضغط على العرب دون التعاون فيما بينهم.



■ من المخطوطات العربية القديمة — من كتاب البحرية في مصر الاسلامية — د. سعاد ماهر

واستطاع عمرو بن العاص مطاردة الروم من شمال الدلتا وألجأهم الى الاسكندرية التي تحصنوا بها، واستماتوا في سبيل الاحتفاظ بها. وقد نصب الروم المجانيق على أسوار الاسكندرية، وأخذوا يمطرون العرب بوابل من القذائف. وعانت القوات العربية الكثير من المتاعب في حصارها للاسكندرية، واستبد الحنق بعمرو بن العاص حتى أقسم لئن استولى على المدينة ليهدم أسوارها وجعلها كبيت الزانية يؤتى من كل مكان (٦).

وكان السبب في قوة حركة مقاومة الروم بالاسكندرية هو وجود اسطولهم في مياه الاسكندرية، يزود المقاتلين بالعدة والعتاد، ويقف حارساً حامياً لظهورهم. ومن ثم طال حصار عمرو بن العاص للاسكندرية، وكان حصاراً أشق أضنى من حصاره الأول لتلك المدينة. ولم يتمكن من اقتحام المدينة الا بعد أن أرشده أحد المصريين الموالين للعرب الى أحد الابواب الضعيفة الحراسة، واعمل السيف في قوة الروم المقيمة بالاسكندرية، والتي خر قائدها مانويل نفسه قتيلا فيها، واستطاع الجند العرب كذلك مفاجأة سفن الروم في ميناء الاسكندرية وتدمير عدد كبير منها.

وفي نفس الوقت الذي هزم فيه عمرو بن العاص الروم بالاسكندرية كانت حاميات الشام العربية تقاوم اغارات سفن الروم على المدن الساحلية واستطاعت تلك الحاميات برغم قلة عددها أن تصد هجمات الروم وتنزل بها خسائر فادحة. وعندما جاءت الانباء بهزيمة الروم في الاسكندرية اقلعت السفن عائدة، بعد أن فشلت بدورها في مساعدة مانويل على الاستيلاء على مصر. وبذلك استطاع العرب القضاء على حملة الروم البحرية، ولكن بعد عناء وتضحيات جسيمة، جعلتهم يضعون سياسة جديدة لمواجهة أساطيل الروم (٧).

طليعة البحرية العربية

بعد انتصار العرب على الروم في الاسكندرية والشام قام نفر من زعماء العرب يدعو الى نبذ السياسة البحرية الدفاعية، لانها لم تعد كفيلة بالمحافظة على سلامة ممتلكاتهم، وأن مقتضيات الظروف تتطلب بناء أسطول عربي في البحر المتوسط يرد عن الشواطئ العربية غائلة الروم وهي في عرض المياه، قبل مفاجأتها للسواحل. وجاءت تلك الدعوة العربية عنواناً على أن قوة بحرية جديدة حان ميعاد ميلادها، وأن البحر المتوسط يشاهد في أمة العرب مظاهر تختلف تمام الاختلاف عن دولة الفرس.

وكان صاحب الدعوة الأولى الى بناء الأسطول العربي في البحر المتوسط هو معاوية بن أبي سفيان والي الشام، زمن الخليفة عمر بن الخطاب، ثم آزره في تلك الدعوة والي مصر عبد الله بن أبي سرح، الذي خلف عمرو بن العاص على ولاية تلك البلاد، في عهد الخليفة عثمان بن عفان. ويرجع السبب في سبق معاوية في الدعوة الى ركوب البحر المتوسط، الى التجارب القاسية التي مر بها أثناء فتح اقليم الشام، مما جعل سياسة العرب البحرية الهجومية تستند الى أسس سليمة وليدة الدرس والتمحيص (٨).

وتلقن معاوية الدرس الأول في أهمية البحر المتوسط وضرورة وجود أسطول عربي في مياهه حين اضطلع بعبء فتح مدن الشام الساحلية ذلك أن اخاه يزيداً، أحد قادة العرب في الشام، قد استعصت عليه المدن الساحلية، لانها فضلا عن متانة حصونها ومنعتها كانت متصلة بالبحر مباشرة تتلقى منه الامداد من دولة الروم، وكذلك المؤن التي تضمن لها البقاء والمقاومة. ومن ثم ترك يزيد لاخيه معاوية مهمة اخضاع تلك المدن الساحلية وعاد الى دمشق (٩).

وجد معاوية أن خير طريقة للاستيلاء على مدن الشام الساحلية هو تشديد حلقة الحصار البري عليها، وانتهاز الفرصة المواتية لاقتحام اسوارها، لأن أسطول الروم يقف من خلف تلك المدن ويشد من أزرها. وتجلت سياسة معاوية ازاء المدن الساحلية الشامية حين اتجه الى فتح قيسارية وطرابلس الشام. وكانت المدينة الاولى قد استعصت على عمرو بن العاص نفسه، ذلك القائد الماهر الذي فتح منطقة فلسطين. اذ بعد مغادرة عمرو بن العاص فلسطين متجهاً لفتح مصر، سار معاوية الى هذه المدينة وضرب عليها الحصار.

وظل معاوية مثابراً في حصاره أمام مقاومة المدينة وعنادها، اذ كانت مثل سائر المدن الشامية الاخرى على الساحل تتلقى الامداد وآلات الدفاع من الروم عن طريق البحر، وصدت هجمات الروم

المتوالية. وظل معاوية على حصاره لقيسارية عدة سنوات حتى تمكن أخيراً من اقتحامها سنة ١٩هـ/٦٤٠م بفضل خيانة يهودي يهايدعى- يوسف. اذ أتى ذلك الرجل الى العرب ليلا ودلهم على طريق يمكن مهاجمة المدينة منه، بعد أن أخذ منهم أماناً لنفسه وأهله. ونجح معاوية بذلك في اقتحام قيسارية التي كان لسقوطها في يد العرب فرحة كبرى عند الخليفة عمر بن الخطاب (١٠).

وأظهر معاوية مهارة فائقة في فتح مدن الشام الساحلية حين قصد الاستيلاء على طرابلس الشام، اذ كانت تلك المدينة تعد ميناء دمشق ومفتاح حياتها الاقتصادية، ثم انها بزت سائر مدن الشام في حصوتها ومنعتها، حيث تمتعت بميناء عظيم اتسع لعدد كبير من السفن. وامتازت طرابلس كذلك بأن البحر يحيط بها من ثلاث جهات، وتصل أمواجه الى أسوارها، على حين يحيط بسورها خندق عظيم. وزاد في منعة هذه المدينة وسهولة حصولها على الامداد وجود أربع جزر صغيرة تقع أحداها وراء الأخرى في مياه البحر القريبة منها (١١).

وجه معاوية الى طرابلس سفيان بن مجيب الازدي، ووضع خطة محكمة للاستيلاء عليها تتفق وافتقار العرب الى أسطول بحري في ذلك الوقت. وكانت تلك الخطة تهدف الى تضييق الحصار على طرابلس براً ومحاولة منع وصول الامداد اليها من سفن الروم. فبنى القائد الاموي حصنا في مرج يقع على أميال من طرابلس وضيق على أهلها الخناق. ولما اشتد الحصار كتب سكان المدينة الى امبراطور الروم يطلبون منه ارسال أمداد، أو أيفاد سفن يهربون عليها ولما لم يكن هناك مناص من التسليم، بعث امبراطور الروم بسفن حملت الجند في جنح الليل، وخلت حصون المدينة من المدافعين عن هذا الميناء الهام (١٢).

واذا كان معاوية بن أبي سفيان قد بذل في فتح المنطقة الساحلية من اقليم الشام جهوداً ذات "بلاء حسن وأثر جميل" كما شهد له بذلك قادة العرب في الشام، فانه خرج من تلك العمليات الحربية بنتيجة هامة، كانت السبب الرئيسي في بناء الاسطول العربي في البحر المتوسط. فقد أدرك معاوية أن بقاء العرب واحتفاظهم بممتلكاتهم في الشام ومصر رهن بالاستيلاء على جزر البحر المتوسط التابعة للروم، والتي كانت قواعد بحرية خرجت منها الامداد الى مدن الشام أثناء حصار العرب لها.

وبدأ معاوية يعمل على تحقيق أهدافه البحرية بعد أن انفرد بولاية الشام على عهد الخليفة عمر بن الخطاب، حتى غدت فترة ولايته على الشام الحجر الاساسي في صرح قوات العرب البحرية فيما بعد، وفاتحة المجد البحري العربي وتجلت الخطوط الرئيسية للبرنامج البحري الذي رسمه معاوية حين أرسل الى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه في غزو جزيرة قبرص، مبيناً شدة خطورة هذا المعقل التابع للروم على سلامة مدن الشام، اذجاء في خطابه: "يا أمير المؤمنين في بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم، وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص (١٣)"، ثم ختم خطابه بعد هذا الوصف الدقيق المؤثر بطلب الاذن له بغزو تلك الجزيرة.

وأراد الخليفة عمر بن الخطاب ان يعرف آراء قادة المسلمين في طلب معاوية بغزو قبرص، ولاسيما أنه يحمل العرب على اقتحام ميدان البحر، وفيه مخاطرة تستوجب الدرس والروية، فضلا عن أن هذا الموضوع الذي أثاره معاوية موضوع جديد لا بد من عرضه على كبار رجالات العرب. ووقع اختيار الخليفة عمر بن الخطاب على عمرو بن العاص، والي مصر اذ ذاك، لما لهذه الولاية من شواطىء على البحر المتوسط مثل الشام، ولأنها كذلك تعرضت للاغارات البحرية التي شنها الروم على السواحل.

وجاء رد عمرو بن العاص وصفاً دقيقاً لطبيعة البحر وركوب مياهه، وما يلاقيه المرء في ذلك من صعاب. فكتب الى الخليفة: "أني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، إن ركن خرق القلوب، وإن تحرك أزاغ العقول... هم فيه كدود على عود إن مال غرق، وإن نجا برق (١٤)" ولذا لم يكن عجباً أن يؤثر الخليفة عمر بن الخطاب التريث في إجابة طلب معاوية بعد أن وقف على رأي عمرو بن العاص في البحر وراكبه.

وبذلك ظهرت عدة آراء إزاء ركوب البحر المتوسط، أحدها ينادي به معاوية، وهو ضرورة بناء قوة بحرية تدافع عن أرض العرب في الشام ومصر، والثاني ينادي به عمرو بن العاص، وهو تجنب المخاطرات البحرية. واعتنق الخليفة عمر بن الخطاب هذا الرأي الاخير لأنه آثر الوقوف على الحياد إزاء تلك المشكلة الخطيرة. وكان رائد الخليفة في اتخاذ هذا الموقف الحيادي هو الحرص على سلامة المسلمين، حيث قال لمعاوية في الرد على طلبه بغزو قبرص: "تالله لمسلم أحب الى مما حوت الروم (١٥)"

ولكن معاوية لم يكن بأقل من الخليفة حرصاً على سلامة المسلمين، وإنما كان أشد الولاة إحساساً بالخطر الذي يلوح في الأفق مهدداً ولايته بالشام وكذلك مصر، بسبب وجود أسطول الروم قريباً من شواطئهما، وافتقارهما الى وسائل الدفاع. وآثر معاوية أن ينفذ سياسته البحرية تدريجياً، جرياً على ما اتصف به من دهاء وحيلة، ولاسيما إزاء موقف كل من المعارضة والحياد اللذين ظهرا بصدد رغبته في الهجوم على جزيرة قبرص. فكتب معاوية مرة أخرى الى الخليفة عمر بن الخطاب يعرض عليه سوء حال سواحل الشام وما هي عليه من خراب وافتقارها الى وسائل الدفاع القوية.
ولم يتردد الخليفة عمر في أن يطلق يد معاوية لاصلاح حال السواحل بما يراه كفيلا بسلامتها من "مرمة حصونها، وترتيب المقاتلة فيها، وإقامة الحرس على مناظرها واتخاذ المواقيد لها (١٦)". واستغل معاوية هذا التصريح واتخذه خطوة أساسية يبنى عليها مشاريعه البحرية. فآثر أن يحصن المدن الساحلية ويزودها بالقوات المحاربة، بما يجعلها قواعد في المستقبل تنقل منها الجنود بحراً الى أي مكان يشاء.



■ جبل الكرمل ومرفأ حيفا، للفنان "أ.دابر" من كتاب "روائع الاراضي المقدسة". ليلي ومروان بحيري

ووضع معاوية للمدن الساحلية نظاماً عرف بالرباط، وهو يقصد به الأماكن التي تتجمع بها الجند والركبان استعداداً للقيام بحملة على أرض العدو. واعتنى معاوية بهذا النظام حتى أصبح جزءاً مرتبطاً أشد الارتباط بالجهاد أو الحرب المقدسة. ذلك أن الرباط اجتذب اليه كل الأتقياء المتحمسين، العاملين دائماً على إعزاز الاسلام ونصرته. وكان لهذه الظاهرة السالفة أثر كبير في تكوين القوات الأولى للبحرية العربية في عهدها المبكر.

وجاء اعداد الرباط عملا يتفق مع خطة معاوية البحرية،التي تستهدف تأمين السواحل أولا، واعداد قواعد بحرية للمستقبل ثانياً. فكان الرباط يضم حصوناً يتجمع فيها الجند للدفاع عن المناطق المعرضة لاغارات أساطيل الروم، ولتكون ملجأ كذلك يحتمي بها الاهالي في المناطق التي يدهمها العدو. وقد خصصت حاميات الرباط لانذار الأهالي في المناطق الساحلية بأن يأخذوا حذرهم اذا ما لاح خطر سفن الروم في المياه الاقليمية. فكان الحصن في الرباط يضم حجرات للجند ومساكن لهم ومخازن للأسلحة والمؤن، وبرجاً للمراقبة. غير أن الربط لم تلبث أن اتسعت وازدادت أهميتها،حتى صارت قواعد للهجوم البحري وشن الغارات.

واكتفى معاوية بسياسة تقوية السواحل حتى ولي الخلافة عثمان بن عفان، إذ خطا منذئذ خطوة ثانية في متابعة سياسته البحرية، وتشجيع الناس على النزوح الى المناطق الساحلية، لينمى عندهم ملكة ركوب البحار. وساعد معاوية على تحقيق خطته أن الخليفة أمر بمنح كل راغب في الاقامة بالمدن الساحلية اقطاعات من الأرض يستغلها ويتمتع بخيراتها. فترتب على ذلك ازدياد العمران بالسواحل، وانثيال الناس عليها للتمتع بامتيازات الاقامة بها، دون أن يأبهوا بمخاوف التعرض لاعتداءات سفن الروم. ومما ساعد على طمأنينة سكان السواحل أن معاوية أعد جيشاً ثانياً في المدن الساحلية للدفاع عنها الى جانب قوات الرباط، كما دأب على أخذ ارض من يتخلف عن الغزو، واعطائها للجند المقيم على حراسة السواحل أثناء الخروج للاغارة (١٧).

وتعتبر سياسة منح الاقطاعات بالسواحل الخطوة الاخيرة في سلم السياسة البحرية الدفاعية، التي رسمها معاوية قبل أن يستطيع ركوب البحر المتوسط في عهد الخليفة عثمان بن عفان. اذ أتم بفضل هذه الامتيازات اعداد القواعد البحرية التي أنشأ فيها أساطيله فيما بعد. وكانت آية ازدهار المدن الساحلية نقل جماعات من اهالي بعلبك وحمص وأنطاكية سنة ٤٢هـ/٦٦٢م الى صور وعكا وغيرها من المدن الساحلية (١٨). وكذلك أصلح معاوية الحصون البحرية، ولاسيما حصون عكا التي خرج منها بأولى حملاته البحرية ضد قبرص.

ومد معاوية اهتمامه الى سائر المدن الساحلية، فمنح الجند أراضي كذلك في أنطرسوس ومرقية وبلنياس، وأهتم اهتماماً خاصاً برباط عسقلان والجند الموكلين بحمايتها (١٩). وأخيراً جدد بعض الحصون في المدن التي خربت معاقلها القديمة، كما فعل في مدينة جبلة. ومن ثم آتت سياسة الاقطاعات ثمارها، فعمرت الثغور البحرية لأن "الناس انتقلوا الى السواحل من كل ناحية (٢٠)"، على حد قول المؤرخين المسلمين.

وجنى معاوية ثمار هذه السياسة التمهيدية حين استطاع أن يظفر من الخليفة عثمان بن عفان بتصريح يبيح له غزو قبرص، إذ سمح له الخليفة بالقيام بالغزو البحري على شرط الا يكره أحداً على ركوب البحر، وأن يعبىء أساطيله من المتطوعة فقط. ولم يلق معاوية عناء في اجتذاب الجند الذي أخذه معه في حملاته البحرية، اذ كانت المدن الساحلية عامرة بالمغامرين وغيرهم ممن ذاقوا ثمار الاقطاعات وامتيازاتها، وتطلعوا الى خوض غمار الميدان البحري تحت راية معاوية، مخلدين اسمهم في طليعة الحملات الاسلامية البحرية.

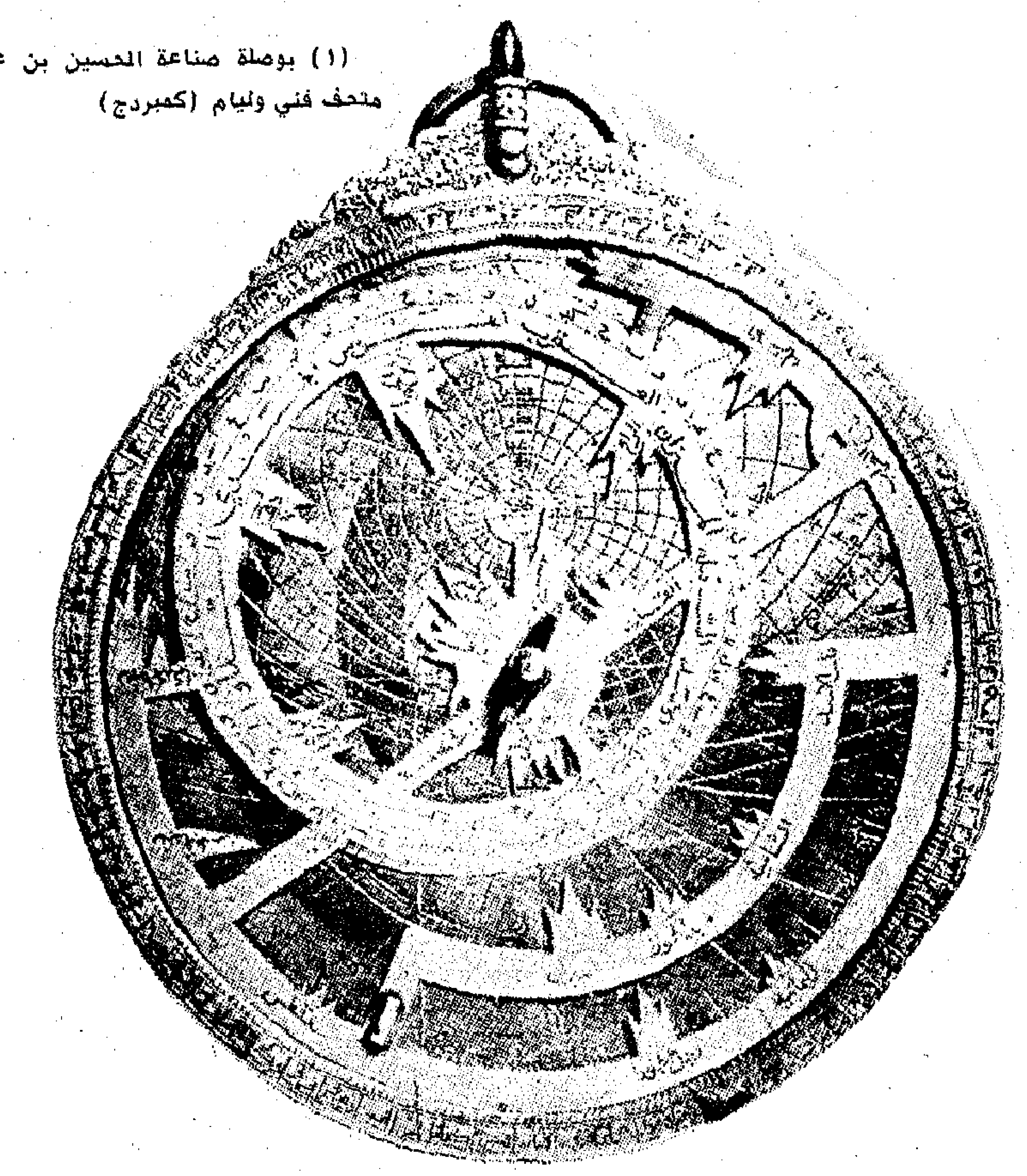
واذا كان لمعاوية الفضل في بناء السياسة البحرية التي غرست نواة القوات العربية في البحر المتوسط، فإن والي مصر زمن الخليفة عثمان بن عفان، وهو عبد الله بن أبي سرح، يعتبر الساعد الأيمن لمعاوية في مجهوداته لخلق هذه القوة البحرية. ذلك أن عبد الله بن أبي سرح خلف عمرو بن العاص على ولاية مصر، وبذلك اختفت شخصية عمرو الذي عارض في ركوب البحر.

وكان عبد الله بن أبي سرح من المتحمسين لبناء أسطول عربي في البحر الابيض المتوسط، ومن ثم وضع موارد مصر البحرية ورجالها في خدمة معاوية، والمساهمة معه في سائر الحملات البحرية التي أعدها لصد الروم. وبلغ من ايمان عبد الله بن أبي سرح بضرورة إنشاء أسطول عربي، أنه خرج بنفسه في الحملات البحرية، ليضرب المثل الأعلى لسكان ولايته على تفانيه في نصرة البحرية العربية.

وتعتبر مجهودات عبد الله بن أبي سرح الخطوة الايجابية في بناء قوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط. فإذا كان معاوية قد نفذ الخطوات التمهيدية لبناء السفن وشحنها بالمقاتلة من العرب وغيرهم، فإن عبد الله بن أبي سرح هو الذي بدأ بناء السفن الأولى التي تكونت منها نواة الاسطول العربي. ذلك أن مصر كانت أيام تبعيتها للروم،بل استيلاء العرب عليها، مشهورة بمهرة صناع السفن فيها، وكثرة دور الصناعة التي أخرجت الأعداد الوافرة من سفن الروم، فتابع عبد الله بن أبي سرح سياسة بناء السفن في مصر، وبعث بها الى الشام التي كانت خالية إذ ذاك من دور الصناعة.

وقد ساعدت العوامل الطبيعية على تعضيد التعاون البحري بين كل من معاوية والي الشام وعبد الله بن أبي سرح والي مصر. ذلك أن مصر فقيرة في أخشابها التي تصلح لبناء السفن على حين تكثر بالشام الاشجار التي تزود مصر ودور صناعتها بما تحتاجه من أجود الاخشاب. ومن ثم كانت مصر تستورد من الشام الاخشاب وتردها سفناً شامخة تعلي من راية العرب في قواعد الشام البحرية.

(١) بوصلة صناعة الحسين بن علي (٧٠٩هـ ١٣٠٩م) عن متحف فني وليام (كمبردج)



وظلت مصر وحدها مصدر بناء السفن العربية حتى سنة ٤٩هـ/٦٦٩م، إذ شن الروم في تلك السنة غارة شديدة على سواحل الشام. وكانت تلك الاغارة من العنف بحيث جعلت معاوية يفكر في انشاء دور لصناعة السفن بالشام نفسها الى جانب دور الصناعة بمصر، حتى يجد لديه أساطيل على أهبة الاستعداد إذا ما دمر العدو السفن الرابضة في قواعد الشام كذا أمر معاوية في نفس السنة التي حدثت فيها إغارة الروم على الشام بجمع الصناع والنجارين وإرسالهم الى عكاء التي وقع اختياره عليها لينشىء بها أول دار لصناعة السفن بالشام. وكانت عكا تستطيع الحصول على ما يلزمها من أخشاب لبنان، التي أشتهرت بصفة خاصة بصلاحيتها للمجاديف (٣٢).

وبذلك استطاع دعاة الأسطول العربي أن ينجحوا في تحقيق مآربهم بفضل مثابرتهم وتعاونهم، وخرجت طلائع الأسطول العربي الى البحر المتوسط تعلي من شأن العرب، وتعلن ميلاد مجدهم البحري.

القيادة البحرية المشتركة

وعندما قامت في الشام دور الصناعة لبناء سفن الاسطول العربي كذلك، دخل التعاون البحري بين مصر والشام في دور جديد. ذلك ان البحارة والمقاتلة الذين عملوا في الأسطول العربي جاءوا من سكان الشام ومصر، وحاربوا جنباً الى جنب دون أية تفرقة. وكان اعتماد العرب في تلك الفترة المبكرة من نشاط أسطولهم على أقباط مصر وسكان الشام القدامى، الذين مهروا في ركوب البحار وتدربوا على فنون القتال فيه. ولم يسهم من العرب في تلك الحملات البحرية الأولى غير اليمنيين، ولاسيما جماعاتهم وقبائلهم التي استقرت في الشام قبل الفتح العربي، إذ أن لعرب الجنوب ماض بحري تليد، وخبرة بركوب البحار.

وبذلك جمعت العوامل الجغرافية بين الشام ومصر منذ فجر الفتح العربي لهما، وقامتا بدور مجيد في خدمة قوات البحرية العربية (٣٣). وفضلا عن ذلك لم تنفك عرى ذلك التعاون البحري بين الشام ومصر الذي وضع أساسه معاوية بن أبي سفيان وعبد الله بن أبي سرح أيام ولايتهما لهذين الاقليمين على عهد الخليفة عثمان بن عفان.

ويعتبر هذا التعاون البحري بين مصر والشام حجر الزاوية في صرح الأسطول العربي في صدر نشاطه، والسبب في انتصاراته الباهرة التي أحرزها هذا الاسطول منذ أيامه الأولى. ثم إن التعاون البحري المصري الشامي صار كذلك النموذج الذي نهج العرب على منواله كلما اتسعت بهم الفتوح، لأنهم لمسوا فوائده وثماره الطيبة في ميدان البحار.

من كتاب "قوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط" للدكتور ابراهيم احمد العدوي